باليه الحب و الكرامة

دقت الساعة خمس دقات ، إنها دقات عمري ، منذ أعوام مضت لم أعد أحسبها بعد .. عندما أسمع هذه الدقات ، يدق قلبي رغم أنفي ، و أرى أمامي شريط الذكريات ..

كم هى غريبة هذه النفس البشرية ، إنها ليست إلا مجموعة من المتناقضات لا يعرف سرها إلا الخالق (عز و جل) .

سعيت إلى نقلي من " الفيوم " إلى " القاهرة " ، لتضيع أحلامي وسط ضجيجها وأبتعد عن كل الذكريات ، مازلت أتوسل " لأمي " حتى أقنعتها بالاستقرار و الإقامة معي خاصة بعد رحيل " أبي " ، و زواج " أخي " الوحيد ، و سفره إلى الخارج .

منذ رحلت إلى القاهرة ، وأنا أقاطع الأماكن العامة ، و الفنادق الكبرى ، خشية المصادفة التي قد تجمع بيني و بين الماضي البعيد ، فقد قرأت في إحدى الصحف إنه أصبح صاحب أكبر شركة " للمقاولات و الأعمال الهندسية ".. يا لها من سنوات .

عاد شريط الذكريات ، التقيت " بعماد " فى مكتبة جامعة " الفيوم " ، كنت وقتها طالبة فى السنة الثانية بكلية الآداب ، و كان " عماد " في آخر سنة بكلية الهندسة ...

تحركت خطوات ، و نظرت في المرآة ، تحسست التجاعيد على وجهي ، و الشعيرات البيضاء تغزو رأسي ، فأغمضت عيناي ، فسمعت صوت أبي الحنون يقول : " يا ابنتي حرام عليكي شبابك ، و جمالك ، الأيام تمر و تسرق أجمل سنوات عمرك ، أريد أن أطمئن عليك قبل أن ... " .

لقد رحل أبي (رحمة الله) قبل أن أحقق أمنيته ، أو يراني فى حماية " رجل " كما كان دائما يقول :

جلست على أقرب مقعد ، لقد كان حبي " لعماد " أقوى من عواصف الزمن ، قصة حب رائعة ما زالت نغماتها الجميلة ، تداعب أوتار نفسي الحزينة ، تبلورت عواطفنا ، و تألقت ، و أشرقت الشمس لتضئ طريق حبنا ليسير في النور و يعرفه الجميع ، كان هذا " الحب "موضوع رعاية و تقدير الأهل ، و الأقارب و الأصحاب .

أنهى " عماد " دراسته ، و جاءني فى ركن الأحلام ، لنشرب عصير " التوت الأحمر " ، و نرقص رقصة حبنا ، وأثناء الرقص طلب يدي ، و تمّت الخطبة و شاركنا الجميع فرحتنا ، و تأجل الزواج لحين الأنتهاء من الدراسة ، و يستعد " عماد " بشقة الأحلام .

مرّت الأيام ، كانت كلها أحلام وردية ، بسمات ، لحظات حب و سعادة ، مازالت خالدة فى الوجدان .

أربع سنوات و أنا و " عماد " نطير من مكان لمكان ، نغرد كالعصافير ، نلتقى في ركن الأحلام لنرسم خطوط مستقبلنا الباسم ، و نحلم بالعش السعيد الذى سيجمعنا ، و في بعض الأحيان كنا نختلف في الرأي ، و نتشاجر ، و نغير ، و نثور، لكن سرعان ما نتصالح .
و يعود " الحب " بيننا أقوى مما كان ، و في النهاية دائما نرقص معا " رقصة الحب والحنان ، و نشرب عصير " التوت الأحمر" .
و ذات يوم جاء " عماد" فرحا ، سعيدا ، مستبشرا ، و هو يقول :
" سوف نتزوج قريبا يا " أمل " ، لقد أتفقت مع " خالد " صديقي على تكوين شركة للمقاولات و الهندسة ، و سوف يعطيني شقة فى عمارة والده ، و الأعمال الحرة مكسبها كبير و سريع " .
دق قلبي بفرحة ، هنأته و قلت له :
" أذن لقد اقترب موعد زواجنا ليجمعنا بيت واحد "
صفق كالطفل الصغير و هو يقول :
" يوم الخميس القادم سيكون عقد قراننا ، ما رأيك يا حبيبتي ؟ ، ولكن سوف يتأجل الزواج لحين أستلام الشقة " .
قلت بلهفة و فرحة :

" عظيم يتأجل الزواج ثلاثة أو أربعة أشهر حتى أستطيع الحصول على الإجازة لقضاء شهر العسل " .

تحقق حلمنا الكبير ، و تم عقد القرآن ، و أصبحت زوجة " عماد " اقترب مني و قال :

" ما رأيك يا حبيبتي نتزوج في شقة مفروشة " .

علت ضحكتي و قلت :

" لماذا الاستعجال ، إننا لم نشتري بعد الأثاث ، و الأدوات الضرورية الخاصة بالزواج ، و أفضل أن أتزوج في شقة خاصة بي ، تتحقق فيها أحلامي ، فالحب الكبير يحتاج إلى الاستقرار ، و الأمان ليستمر ، و يعيش بسلام و اطمئنان " .

سافر " عماد " لشراء بعض الآلات و المعدات الخاصة بالشركة ، و لتأسيس منزل الزوجية ..

و مر الشهر الأول و الثاني ، و المكالمات بيننا لا تنقطع ، يكلمني في الصباح و في المساء ، و يبلغني بقائمة المشتريات ، و يصلني منه خطاب كل أسبوع ، آمال .. و أحلام ، و حقائق ، و وعود .

" متى تعود يا حبيبي لنحقق ما على الورق ؟ "

عاد " عماد " و كان اللقاء أروع ، و أعمق مما ترسمه الأحلام ، و قدمني لصديقه " خالد " و أخته " نهله " قائلا :

" زوجتي و حبيبتي و دنيتي ، أمل حياتي " .

بعد ثلاثة أيام ، ذهبت لزيارة " عماد " فى مكتبه الجديد في الشركة ، كان مكتبا فاخرا ، ديكورات غاية فى الجمال ، تابلوهات رائعة ، الفازات ممتلئة بالورود الطبيعية ذات الرائحة الذكية ، عقود من الفل و الياسمين معلقة هنا و هناك ، و عطر فوّاح يسحر الألباب .

رحب بى ترحيبا شديدا ، و قدم لي عصير " التوت الأحمر " الذي أحبه و هو يقول :

" أحتفظ بعصير " التوت الأحمر " فى ثلاجتي الخاصة ، لأقدمه لحبيبتي " أمل " عندما تأتي لزيارتي " .

كدت أرقص من السعادة ، و فجأة ضغط " عماد " على كتفي و هو يقول :

" لا تنسى أن تهنئي " نهلة " بمنصبها الجديد ، فهي مديرة الشئون القانونية بالشركة ، هززت رأسي ، و ذهبت لتهنئتها .

و في المساء تقابلت مع " عماد " فى ركن الأحلام ، لنرقص معا رقصة فرحتنا و حبنا .

بدأت زيارات " عماد " تقل ، و مكالماته تختزل ، وأعذاره تكثر ، تجديدات ، إنشاءات ، مشاكل عمل ، سفريات ، معاملات ، مقابلات ، اجتماعات ، أعذار بلا نهاية ..

و ذات يوم قالت " أمي " :

" ماذا حدث يا " أمل؟ " لم يعد " عماد " يأتي لزيارتنا الأسبوعية كعادته ، و لم تذهبي إلى ركن الأحلام منذ فترة لعله لم يعثرعلى " القصر" الذي وعدك به .. يا حبيبتي يكفينا " عش صغير " أخبريه بذلك حتى تتم فرحتنا " .

اتصلت " بعماد " و طلبت مقابلته ، و انتظرته في ركن الأحلام ، لكنه حضر متأخرا أكثر من نصف ساعة ، كان ذابلا ، متعبا ، قال بصوت عميق كأنه خارجا من تابوت :

" آسف ياحبيبتى مشاكل العمل كثيرة لم تترك لى الفرصة حتى للسؤال عن شقة الأحلام أرجوك يا " أمل " ..

أشرت له بالصمت و قلت بمرح :

" لا داعي للأسف المهم إنك بخير ، لن ننتظر شقة صديقك ، أخي " محمود " يبحث لنا عن شقة صغيرة تجمعنا معاً قبل زواجه و سفره " .

و خلال شهر من الآن لا تنطق إلا بالهوى ، و الأمل ، و الحب ، لا أريد أن أفسد هذا اللقاء مهما كانت الأسباب ، فلنشرب الأن شراب " التوت الأحمر " ، و نرقص معا رقصة حبنا .

و مضت عشرة أيام لا أعرف " لعماد " مكانا .. لم يتصل بي ، و لم يذهب إلى الشركة و لم يحضر فى الموعد الذى حدده مع أخي لإمضاء عقد الشقة .

و بدأت زوابع التعاسة تهب على حياتي ...

و صباح يوم عاصف أتصل بي ، و طلب مقابلتي في ركن الأحلام مكاننا المعتاد لم أعاتب لم أعترض ، المهم أن نتقابل و نتفق .

ذهبت إليه فوجدته شاحبا ، مرتبكا ، حزينا ، فى يده كأس من الخمر ، و أمامه علبة سجائر ، على الرغم من أنه لم يشرب أو يدخن من قبل ، دفعت بعلبة السجائر بيدي جانبا ، و أنا أتنفس الصعداء .

قال بصوت متقطع :

" أمل " إنني الأن بحاجة إلى حبك و حنانك ، و فهمك أكثر من أي وقت مضى ، فأنت أملي ، و حبي الوحيد ، إنني في ورطة ، أنها مسئوليتي وحدي ، نتيجة نفس الأمارة بالسوء .. و وسوسة شياطين الأرض ، حماقة كبيرة ارتكبتها ، و اعتبرتها نزوة سوف تنتهي ، و تغفري لي ، لكنها جائتني بالأمس لتخبرني " أنها حامل " ،وطلبت مني الزواج حتى لا ينكشف أمرها ، مقابل أن تقدم لنا شقة الأحلام فهى تعرف جيدا كم أحبك ، و لا أستطيع أن أعيش بدونك .

مرت لحظات كأنها الدهر الكاسر ، الكابوس المزعج ، أستجمعت فيها قوتي ، و شجاعتي ، و إيماني ، و كرامتي .

" لا .... يا من أحببتك حتى الثمالة لا أقبل هذه المهزلة ، يا من عشت شهور و سنوات أعد نجوم الليل ، و أداعب ذرات الرياح ، و أناجي الهوى ليجمع الله بيني و بينك ، و يكلل حبنا بالوفاق و النجاح ، لن أغفر غدرك ، لن أرقص بالية التعاسة ، بسبب أمراة أخرى ، لن يخذل حبي كرامتي ... لا ... و ألف لا ، يا من كنت يوما حبيبي و جذبت حقيبتي ، و أطحت بعلبة السجائر و أنا أقول :

" طلقني يا " عماد " طلقني ، و تزوجها حتى تحمي ابنك من الضياع " .

وضعت وسط الظلام و قررت الرحيل ، و تركت مدينة " الفيوم " مرتع صباي و طفولتي ، و أيام سعادتي ، ذهبت مع أمي المريضة لنعيش معا فى القاهرة و نبعد عن كل الذكريات .

حاولت أنا أبتعد تماما عن كل ما يذكرني " بعماد " ، ولكن حبه لم يبتعد عن قلبي الذي رفض كل من حاول أن يقترب منه أو يداعبه ، حتى " أمي " يئست من محاولاتها :

" يا أمل " الأيام تمر ، و لا أريد أن أرحل ، و أتركك وحيدة فى هذه الدنيا " .
و كنت أداعبها و أقول : " أنت فى أشد الحوجة لي يا ست الحبايب ، وأخشى أن يدخل حياتنا إنسان ثالث فيفسدها ، لا أريد بيننا عزولا " .
و الحقيقة أن " قلبي " هو الذي يرفض هذا الدخيل ، حتى كان هذا اللقاء الغريب الذى دبره القدر .
ذهبت إلى عيادة الطبيب الذي يعالج أمي لأستشيره و أستفسر عن بعض العقاقير ، وجدته أمامي ، ملأ الشعر الأبيض رأسه ، و خط الزمن خطوطا على وجهه ، قام من مكانه و جلس فى المقعد المجاور لي و همس قائلا :
" أمل " حبي و حياتي ، لم تتغيري كثيرا ، سنوات طويلة و أنا أبحث عنك ، لقد انقطعت أخبارك منذ تركت " الفيوم " ، أبتعدت قليلاً .. فأقترب مني و قال :
" على ما أرى لا يوجد خاتم زواج في أصبعك " زوجتي ماتت منذ خمس سنوات ، و أنا الآن حر، و ابنتي الوحيدة تزوجت ، و سافرت مع زوجها إلى بلد عربي .
سوف أنتظرك غدا لنذهب معا إلى ركن الأحلام ، لنسترجع ذكرياتنا الجميلة ، و نرقص معا رقصتنا المشهورة ، ونشرب عصير" التوت الأحمر " و نتفق ،

أنا فى أشد الحاجة إليك الأن لتؤنس وحشة الأيام الباقية لي في الحياة ، فأنت أملي و حبي الوحيد ، لا تضيعي فرصتنا الأخيرة يا " أمل " ، سوف أنتظرك غدا فى تمام السابعة مساء ، لنرسم معا خطوط المستقبل القادم " أية مستقبل هذا !! .

خمسة وعشرون عاما مضت ، الشيب بدأ يخط برأسي ، و علامات السنين تركت بصماتها على وجهي ، و امتلأ بدني ، لم أعد العصفورة الرشيقة التي كانت ترقص على نغمات الموسيقا ، و شعري الطويل الناعم الذى كانت تداعبه الرياح ، صار معقوفا خلف ظهري ، مقيدا لم يعد يشعر بالحرية .... و أفقت من الذكريات و هربت من المكان ... و هو يردد :

" لا تنسي موعدنا السابعة غداً.. يا أمل " .

كانت الساعة تقترب من السابعة ، لم يدق قلبي ، لم أشعر بلهفة على اللقاء ، لماذا ضيعت عمري ، و أجمل سنوات شبابي فى التعلق بالأوهام الكاذبة ؟ .

دقت الساعة سبع دقات ، أسدل الستار على قصة " الحب و الكرامة " ، وسمعت صوت أمى تنادينى ، وقبل أن أذهب إليها سمعت صوت ارتطام شديد .

أسرعت إلى " البلكونة " لأعرف مصدرالصوت ، فوجدت ريحا عاصفة أسقطت أصص الزرع ، و كسرتها ، جمعتها ، و أغلقت النافذة .

عدت لأمي ، و أخبرتها بما حدث ، وقلت بهدوء :

" لا تقلقي أنها الطبيعة ، رياح الخريف العاصفة كسرت أصص الزرع .. و أطاحت بالورود الجميلة " .

قالت و هي تبتسم :

" لقد تأخرت على موعد " عماد "

قلت و أنا أضع الشال الصوف على كتفي :

" لن أذهب للقاء " عماد " ليس بسبب البرد و العواصف بل لأنني لا يمكن أن أكون لرجل يرقص بحبي و كرامتي " .